نظم القرآن من حيث المنهج لتفسير القرآن الكريم: دراسة تحليلية لمبادئه

Coherence in the Qur'an as a Methodology of *Tafsīr*: An Analytical Study of Its Principles

Koherensi Dalam al-Qur'an Sebagai Metodologi Pentafsiran: Satu Kajian Analitikal Prinsip-Prinsipnya

إسرار أحمد خان*

الملخّص

مما لا شكّ فيه أنّ اختلافا شاسعا وخلافا شديدا قد وقع بين العلماء والفقهاء والمفسرين في تفهيم معنى القرآن الحكيم، فتفرق المسلمون في العصر الراهن في فهم الآيات القرآنية وامتثالهم بها. فيمكن القول بأن منهج تفسير القرآن الذي يؤدي إلى افتراق الأمة ليس هو المنهج المناسب. ويبدو أنّ القرآن يُفسّر لأحد الهدفين، لاستنباط حكمٍ في مسألة ما أو لإثبات عقيدة خاصة. والمنهج المناسب هو المنهج الذي يهدي الناس بصورة عامة والمسلمين بصورة خاصة إلى الوحدة. فجاء بعض المفسرين بمنهجٍ لتفسير القرآن الكريم يقال له: "نظم القرآن" الذي يطلب من المفسر أن يتبع بعض الأصول والمبادي التي يظهر باستخدامها في تدبر القرآن الترابط والانسجام والاتحاد بين كل ما جاء القرآن به. ومن المفسرين البارزين الذين فسروا القرآن الكريم على أساس النظم هم الحرالّي (ت٦٣٧هـ) والبقاعي (ت٨٨٥هـ)، والفراهي (ت١٩٣٠م)، والإصلاحي (ت١٩٩٧م). في هذا

* أستاذ التفسير في كلية العلوم الإسلامية، جامعة السلطان محمد الفاتح، إسطنبول، تركيا.

المنهج عشرة مبادئ تُستخدم في تفسير القرآن. وهذا البحث يتناول دراسة تحليلية لتلك المبادئ العشرة.

الكلمات المفتاحية: نظم القرآن، منهج التفسير، افتراق الأمة، الفراهي، الإصلاحي.

Abstract

Undoubtedly, very serious differences have occurred among Muslim scholars, jurists, and commentators in explaining meaning of the Qur'an. It has led the Muslims in general to disunity as to the understanding of the Qur'anic verses and their implementation in life. It may then be said that methodology of the Qur'anic interpretation which causes dissension among Muslims is not appropriate methodology. Generally, the Qur'an is interpreted either to derive a legal ruling on a given issue or prove sanctity of a particular belief whatsoever. The appropriate methodology of Qur'anic interpretation is the one which brings unity among Muslims in particular and the humanity in general. Towards that end some Muslim scholars developed a new methodology of Qur'anic interpretation known as "Coherence", which requires of *Mufassirūn* to follow certain principles so as to show that all the components of the Qur'an are interconnected, cohesive, and coherent. The most prominent scholars, who applied "Coherence" methodology in Qur'anic interpretation, are al-Ḥarālliyy (637 A.H.), al-Biqā'ī (885 A.H.), al-Farāhi (1930 C.E.), and Islahi (1997 C.E.). The principles of "Coherence" are ten. This paper is devoted to deliberate over these ten principles.

Keywords: Coherence in the Qur'an, Methodology of Qur'anic Interpretation, Muslims' Disunity, Al-Farāhi, Islahi.

Abstrak

Tidak diragukan lagi, perbezaan yang sangat serius telah berlaku di kalangan ulama, ahli hukum dan pengulas Islam dalam menjelaskan makna Al-Qur'an. Ia menyebabkan berlakunya perpecahan antara umat Islam dalam pemahaman dan pelaksanan ayat-ayat Al-Quran dalam kehidupan. Maka boleh dikatakan bahawa metodologi penafsiran al-Qur'an yang menyebabkan perselisihan di kalangan umat Islam bukanlah metodologi yang sesuai. Secara umumnya, Al-Qur'an ditafsirkan sama ada untuk mendapatkan ketetapan undang-undang atas sesuatu isu atau membuktikan kesucian kepercayaan tertentu. Metodologi yang sesuai bagi tafsiran Al-Qur'an adalah yang membawa perpaduan khususnya di kalangan umat Islam dan manusia secara umumnya. Sehubungan itu, beberapa cendekiawan Islam telah membangunkan satu metodologi baru bagi tafsiran Al-Quran yang dikenali sebagai "Koherensi", yang

memerlukan Mufassirun untuk mengikuti prinsip-prinsip tertentu untuk menunjukkan bahawa semua komponen Al-Qur'an adalah saling berkaitan, kohesif, dan koheren. Al-Ḥarālliyy (637 AH), al-Biqāʿī (885 AH), al-Farāhi (1930 CE), dan Islahi (1997 CE). Prinsip-prinsip "Koherensi" adalah sepuluh. Kertas kerja ini ditujukan bagi perbincangkan sepuluh prinsip ini.

Kata Kunci: Koherensi dalam al-Qur'an, Metodologi Tafsiran al-Qur'an, Perpecahan umat Islam, Al-Farāhi, Islahi.

المقدمة

ما هو يظهر بدون أي شك في الكون هو النظم و الترتيب والربط بين كل شيئ فيه وأجزائه. وهذا هو النظم في الكون الذي يقوم نظام الحياة به والذي يعطي الجمال مع الكمال في كل خلق من الخلائق في السماوات والأرض. فثبت من ذلك أن النظم في الحقيقة هو أساس النظام والجمال والكمال. الله الذي خلق السماوات والأرض وما فيها على أصول النظم. وهو الذي أنزل القرآن على الناس لكي يعرفوا بخالقهم وبأنفسهم. وأجمع العلماء على أنّ في القرآن النظام والجمال والكمال، فلا بدّ أن يكون فيه النظم. وإذا قيل إنّ القرآن يخلو من النظم والترتيب في أجزائه فمعناه أنّه أيضا يخلو من النظام والجمال والكمال. وهذا القول مردود ومذموم لأنّ الله أعلن في القرآن أنّ ﴿**الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ**﴾ [هود:١] وأيضا وصف الكتاب المنزل بصفة ﴿**وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ**﴾ [يس:١]. فهل يمكن للكلام غير منظّم أن توجد فيه حكمة. ووجود الحكمة في القرآن يثبت أنّ فيه النظم البالغ الكامل الشامل. يمكن القول أن الحكمة في الكلام تحتاج إلى النظم فيه. ومع ذلك فإن الكثير من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين نسوا هذا في تفاسيرهم للقرآن. وهذا هو السبب الأقدم الذي قد أدّى إلى الاختلاف بين المفسرين في فهم فحوى كلام الله وتفهيمه. وأجمع المفسرون على بعض المبادئ للتفسير منها "القرآن يفسر القرآن" و"الحديث والسنة يفسران القرآن" و"أقوال الصحابة وآراء التابعين تفسر القرآن" و"تدبر القرآن يهدي إلى فهم صحيح لرسالة القرآن". وهذه هي

المبادئ التي قد إستخدمها المفسرون سواء من أهل المأثور والرأي والفقه والفلسفة، وسواء من الأشاعرة، أو المعتزلة، أو الصوفية، وسواء من الأحناف، أو الشافعية، أو المالكية في تفاسيرهم. ولكن توحيد المنهج في التفسير ما أدّى إلى توحيد الفهم والتفهيم. هل ليس معناه أنّ في كيفية تعامل المفسرين مع المبادئ المذكورة خلل كبير. إنّ القرآن قد يهدف توحيد الناس وليس التفريق بينهم. فالتفسير الذي يسبب الإفتراق بين الأمة هو غير محمود. إزاء هذا الإفتراق والاختلاف في تفسير القرآن قد اقترح بعض العلماء منهجا جديدا لتفسير القرآن يقال له "نظم القرآن" الذي سيؤدي إلى وحدة الأمة كما يدعي زعماء ذلك. نظم القرآن يشتمل على عشرة مبادئ. يهدف هذا البحث لشرح هذه المبادئ العشرة.

نظم القرآن عند أهل البلاغة

كانت العرب في الجاهلية تفتخر بالبلاغة والفصاحة في كلامهم وأشعارهم وخطبهم ولكن بعد نزول القرآن قد تغير نظريتهم في بلاغة كلامهم لأنهم قد احسّوا بكل مشاعرهم وأحاسيسهم بأنّ القرآن قد تفوق في البلاغة. قد ترك لبيد أحد شعراء المعلقات السبع تخليق الشعر بعد إسلامه ، فقيل لماذا، فقال: أبعد القرآن؟[1] فقد تحير العرب ببلاغة القرآن الأسمى. فيأتي سؤال وهو من الطبيعي: ما الفرق بين بلاغة العرب وبلاغة القرآن؟ أو ما هو العنصر في بلاغة القرآن الذي أدهش أذهان العرب وقلوبهم؟ فجاء الجاحظ (ت٢٥٥هـ) برأي أنّ ما يتفوق القرآن فيه من بلاغة العرب هو النظم فيه. فاقترح هذا المصطلح "نظم القرآن" لذلك[2]. وهذا المصطلح قد استخدمه علماء

---

[1] الإصلاحي، أمين أحسن، **تدبر القرآن** (دهلي: الشريكة التاج، ١٩٩٧م)، المقدمة، ص:١٤.

[2] الجاحظ، عمرو بن بحر، **الحيوان** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت)، ج٤، ص: ٨٩؛ وأيضا الجاحظ، **البيان والتبيين** (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٤٢٣هـ)، ج٣، ص١٩٨.

إعجاز القرآن منهم الخطابي (ت٣٨٨هـ)[٣] و الباقلاني (ت٤٠٣هـ)[٤] والجرجاني (ت٤٧١هـ)[٥] لإثبات كون القرآن معجزا. ومعنى نظم القرآن عند أهل البلاغة أن في كلماته وآياته وسوره ترتيبه خاصة من ناحيتي اللفظ والمعنى الذي جعل كلامه أبلغ من كلام المخلوق. لو انقلب هذا الترتيب في القرآن لانحطت بلاغته من سموها وأيضا لوقع الفساد في معنى كلامه.

نظم القرآن عند بعض أهل التفسير

رأى بعض المفسرين من المتقدمين والمتأخرين منهم القاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ) والرازي (ت٦٠٦هـ) والحرالي (ت٦٣٧هـ) والبقاعي (ت٨٨٥هـ) والفراهي (ت١٣٤٩هـ) والمودودي (ت١٩٧٩م) والإصلاحي (ت١٩٩٧م) نظم القرآن من ناحية تفسيرية. وهم تجاوزوا ما جاء عند أهل البلاغة مصطلح "نظم القرآن" لأجله، وأنشأوه كمنهج تفسير القرآن. ويقال أنّ أول مفسر الذي استخدم "نظم القرآن" هو القاضي عبد الجبار في تفسيره "تنزيه المطاعن عن القرآن". نظم القرآن عنده المناسبات بين الآيات فحسب. فخر الدين الرازي إهتم إهتماماً خاص في تفسيره "مفاتيح الغيب" بإبراز النظم بين جميع الآيات في السورة، و فند الخيال أنّ القرآن لا يوجد فيه النظم والترتيب[٦]. والحرالّي ركز في تفسيره "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل" على اكتشاف النظم بين الآيات في السورة. والبقاعي وسّع نطاق نظم القرآن في تفسيره "نظم

---

[٣] الخطابي، حمد بن محمد، **بيان إعجاز القرآن** "في ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن لمؤلفي محمد خلف الله ومحمد زغلول" (مصر: دارالمعرفة، ط٤، ٢٠٠٢م)، ص٢٧.

[٤] الباقلاني، محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن**، تحقيق: السيد أحمد صقر، (مصر: دارالمعارف، ١٩٩٧م)، ص٤١.

[٥] الجرجاني، عبد القاهر، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م)، ص٣٤٤.

[٦] الرازي، فخرالدين، **مفاتيح الغيب** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧م)، مج٩، ص٥٦٩.

الدرر في تناسب الآيات والسور" إلى النظم بين السورة وما قبلها وما بعدها، ومعرفة المقصد الرئيسي في السورة، إضافة إلى الربط بين الآيات في السورة. ثم جاء بعدهم بعد فترة طويلة عبد الحميد الفراهي الهندي لتنقيح أصول نظم القرآن في رسالته "نظام القرآن"، وهو الذي جذبت فكرته العلماء بصورة عامة والمفسرين بشكل خاص إلى أنّ الأجزاء التركيبية لكل كلام أربعة وهي: العمود والتمهيد والمنهج والخاتمة[٧]. فأسّس الفراهي نظم القرآن كمنهج تفسير للقرآن على أساس هذا النظام للكلام. إنما أراد الفراهي بتفسير القرآن كله على هذه القاعدة، ولكن ما سمحته حياته القصيرة تكميل مشروعه الأروع إلا تفسير بعض السور القصيرة بما فيها سورة الفاتحة وأيضا سورة البقرة حتى الآية ٦٥. وإضافة إلى ذلك فقد ترك في ورثته العلمية رسائل ومذكرات تدور كل فكرة فيها حول أساليب القرآن ونظامه ومحاوره. وقد تأثر سيد أبو الأعلى المودودي تأثراً كثيرا بفكرة الفراهي وأكد في مقدمة تفسيره "تفهيم القرآن" بكل تأكيد أنّ القرآن فيه النظم والترتيب[٨]، واهتم ذلك باهتمام بالغ في تفسير الآيات والسور. والمفسر الذي قد تمّ مشروع الفراهي هو الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي، أحد تلاميذ الفراهي، بتفسيره "تدبر القرآن" بالأردية. وفي هذاالكتاب قد فسر مفسره القرآن كله بإستخدام "نظم القرآن". سيد قطب (ت١٩٦٦م) ومحمد أسد (ت١٩٩٢م) وابن عاشور (ت١٩٧٧م) وعبد الله يوسف علي (ت١٩٤٨م) قد اهتموا إلى حد ما بفكرة نظم القرآن في تفاسيرهم.

---

[٧] الفراهي، عبد الحميد، **رسائل الإمام الفراهي** (الهند: سراى مير، اعظم كره، الدلئرة الحميدية، ١٩٩١م)، ص٨٤.

[٨] المودودي، سيد أبو الأعلى، **تفهيم القرآن** (لاهور: إدارة ترجمان القرآن، ١٩٩٧م)، المقدمة، مج١، ص٢٠.

جمهور المفسرين و تجنبهم ل "نظم القرآن"

يمكن أن يقال إنّ المفسرين البارزين المرموقين أمثال الطبري (ت٣١٠هـ) والزمخشري (ت٥٣٨هـ) وابن عطية (ت٥٤٦هـ) وابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) وابن كثير (ت٧٧٤هـ) والشوكاني (ت١٢٥٠هـ) والآلوسي (ت١٢٧٠هـ) والجصاص (ت٣٧٠هـ) والكيا الهرّاسي (ت٥٠٤هـ) وابن العربي (ت٥٤٣هـ) والقرطبي (ت٦٧١هـ) ما انتبهوا إلى نظم القرآن وما فكروا في أهميته في تفسير القرآن، هل ليس معنى ذلك أنّ نظم القرآن ليس له أهمية أساسية جوهرية في فهم القرآن و تفهيمه؟ حتى قال الفخر الرازي الذي اهتم باكتشاف النظم بين الآيات: إنّ النظم في القرآن هو لطيفة علمية فحسب[٩]. فمعناه أنه ما كان يتعامل بنظم القرآن كمنهج خاص لتفسير القرآن. فهذه المشكلة ليست مستعصية ويمكن إبرازها بيسير. الجمهور من المفسرين فسروا القرآن لغرض من الأغراض ولمقصد من المقاصد ولهدف من الأهداف. غرض الأمام الطبري في تفسيره "جامع البيان" هو جمع آراء المتخصصين في القرآن حول كلمات القرآن وآياته. ولأجل ذلك يوجد في تفسير الطبري الرطب واليابس، المذموم والمحمود، المردود والمقبول، المطلوب وغير المطلوب. والمقصود عند الطبري ما كان تفسير القرآن بل كان تأليف وجمع الأقوال حول القرآن. والزمخشري كان هدفه من تفسيره "الكشاف" تأييد آراء المعتزلة فحسب. والفخر الرازي نظر على كل آية في القرآن نظر المتكلم واستنبط واستخرج منها المسائل الكلامية، وها هو تفسيره "مفاتيح الغيب"، ولذلك قال بعض العلماء: إنّ في تفسير الرازي فيه كل شيء إلا التفسير[١٠]. فأما ابن عطية في تفسيره "المحرر الوجيز" وابن الجوزي في تفسيره "زاد المسير" وابن كثير في تفسيره "تفسير القرآن العظيم" والشوكاني في تفسيره "فتح القدير" والآلوسي في تفسيره "روح المعاني" والقرطبي

---

[٩] الرازي، **مفاتيح الغيب**، ص١٠٦.

[١٠] الدكتور محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون** (د.م، د.ن، د.ط، د.ت)، ج١، ص٢٩٦.

في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" وغيرهم قد سلكوا مسلك ثلاثة من المفسرين المتقدمين وهم :الطبري والزمخشري والرازي. وفي الحقيقة هؤلاء الثلاثة عندهم أصالة في كتبهم وبقية المفسرين بعدهم لديهم فقط التقليد للمتقدمين. وكتب التفسير بنفس العنوان "أحكام القرآن" للجصاص وابن العربي والكيا الهراسي تمثل كتب الفقه لثلاثة مذاهب فقهية هي: الحنفي والمالكي والشافعي. والتركيز في هذه التفاسير الفقهية على تأييد مذهب صاحب التفسير وتفنيد مذاهب غيره. فهل يقال لهذه التأليفات تفسيرا للقرآن الحكيم؟ مفسرو "أحكام القرآن" بلا شك حاولوا بشدة التكلف استخراج الأحكام من الآيات القرآنية وفق ما جاء به أئمتهم. فهذه التفاسير نشأت على الآراء وتدبرها، ولا يوجد فيها محاولة تدبر القرآن. والمقاصد المتنوعة والأغراض المختلفة والأهداف التي اهتم المفسرون لحصولها وتكميلها هي التي سددت طريق نظم القرآن. التوجه الخاص إلى الأهداف المعينة ما سمحت الفرصة للمفسرين أن يتوجهوا إلى نظم القرآن الذي لا يمكن لأحد أن يكتشف حكمة الكلام المنزل بدونه. قد افترض القرآن على كل من يريد أن يفهم رسالته تدبر آياته وذلك للحصول على حكمتها. فالمقصد المطلوب لتفسير القرآن هو فهم حكمة كلام الله وإفهامه. ويحتاج هذا الغرض إلى نظم القرآن ومعرفته.

المبادئ العشرة لنظم القرآن

كما شرح الفراهي في رسائله و تفسيره وكما استخدم المفسرون في تفاسيرهم وخاصة البقاعي والإصلاحي لنظم القرآن عشرة أصول ومبادئ هي:

أولا: "تثبيت الربط الوطيد بين السورة وما قبلها وما بعدها".

ثانيا: "تعيين التمهيد في السورة".

ثالثا: "تقسيم المحاور في السورة إلى أنواع محددة بدقة".

رابعا: "إستقصاء للترابط بين هذه المحاور في السورة".

خامسا: "التدبر في ما هو العمود في السورة".

سادسا: "إستقراء الخلفية الإجتماعية و التاريخية في السورة".

سابعا: "تأويل الكلمات في السورة في ضوء لغة العصر الجاهلي كما توجد في قصائد شعراء العرب بمن فيهم امرؤ القيس وعمرو ابن كلثوم ولبيد وزهير والحارث بن حلزة وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد، وأيضا في خطب خطباء العرب بمن فيهم قس بن ساعدة".

ثامنا: "إدراك المخاطب أو المخاطبين في السورة".

تاسعا: "تمييز الظاهرة "الحذف والإيجاز" في السورة مع تبيين الكلام بإستعمال ما هو المحذوف في الآيات في السورة".

عاشراً: "تحديد الخاتمة في السورة". يأتي ذكر هذه المبادئ في السطور التالية.

١– تثبيت الربط الوطيد بين السورة وما قبلها وما بعدها

الترتيب في سور القرآن ليس بترتيب نزولي، لو كان ترتيبها حسب زمن النزول لوضع سورة العلق أولا وسورتي البقرة و المائدة أخيرا. قيل هذا الترتيب في القرآن هو وفق ترتيبه في اللوح المحفوظ. وهذا فقط دعوى بلا دليل قاطع. كما في الحديث إنّ القرآن قد دوّنه الروح الأمين جبريل بترتيب آياته وسوره بحكم الله سبحانه وتعالى، وعند ما انتهى نزول القرآن تم ترتيبه بجميع أجزائه. فماالحكمة في هذا الترتيب في القرآن؟ قال الإصلاحي: إنّه كان لكي يكون القرآن كلاما مربوطا بليغا فصيحا يدهش الأذهان ويؤثر في القلوب ويخضع الرؤوس[١١]. فأول شيء في منهج نظم القرآن هو إدراك الترابط بين السورة التي يقصد المفسر أن يفسرها وما قبلها وما بعدها. وقد كتب بعض العلماء

[١١] الإصلاحي، أمين أحسن، **تدبر القرآن**، ص١٧.

بمن فيهم جلال الدين السيوطي حول حكمة ترتيب السور في القرآن. وليس هذه المساعي إلا لطيفة علمية. يحتاج هذا الأمر إلى شيء جدّي. أجمع العلماء على أنّ سورة الفاتحة مثل المقدمة في القرآن، وبقية السور من البقرة إلى الناس تمثل الجواب للسؤال الذي قد علمه الله الإنسان أن يسئله[١٢]. الربط بين سورتي البقرة وآل عمران هو أنّ في البقرة قد ذكر الله فيها أربعة أصناف من الناس وهم: المتقين و المنافقين والكفار واليهود، مع أوصافهم وخصائصهم وأعمالهم ومناهجهم وأفكارهم وآرائهم. وقد قيل للمتقين فيها أن يجتنبوا مما فعل البقية الثلاث من الناس وأن يمتثلوا بما هو طلب منهم من الإيمان والإخلاص والتقوى والإحسان وأعمال الخير، وأهم الشيء مذكور في البقرة هو أنّ الفلاح في الدارين للإنسان فقط في انقياده للرسول الخاتم الهادي البشير النذير، الذي هو قائد البشر حتي قيام الساعة والأنبياء السابقين منهم موسى عليه الصلاة والسلام قد انتهت قيادتهم للناس. فأما سورة آل عمران نصح الله المؤمنين المخلصين المتقين المحسنين فيها الإحتراز من النصارى الذين أدخلوا في الدين المنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام الغلو والإفراط والتفريط.

ولإكتشاف الربط بين السورة وما قبلها وما بعدها ينبغي للمفسر أن يستقرأ أهم الرسالة المذكورة في السور لأنّ هذه الأمور من الرسالة السماوية ستكون أساسا لتثبيت الترابط بين السور. سيتضح الأمر بمثال عملي. إذا أراد المفسر تفسير سورة القدر (٩٧) فعليه أن يرى الربط بين ثلاثة سور وهي: القدر (٩٧) والعلق (٩٦) والبينة (٩٨). في سورة العلق ذكر صنفين من الناس وأولهما الذين على الهدى ويأمرون غيرهم بالتقوى ويصلون لله، وثانيهما الذين يطغون ويكذبون ويتولون من الحق. وجاء ذكر هذين الصنفين من الناس بعد نقل الوحي الأول المشتمل على خمس آيات التي تعرّف خالق الإنسان وتتحدث عن التعلق بين الخالق والمخلوق. وقيل في سورة القدر إنّ الآيات

[١٢] المودودي، **تفهيم القرآن**، ج١، ص٤٢.

الخمس المذكورة في بداية سورة العلق نزلت في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. فأما سورة البينة فقد جاء فيها ذكر صنفين من الناس، أهل الكفر والشرك وأهل الإيمان والأعمال الصالحة، مرة أخرى، وأهم شيء المذكور فيها، إضافة إلى ذكر صنفين من الناس، وهو إتمام الحجة على الناس بنزول الوحي على النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم. وقد قيل في هذه السور الثلاث :أن الناس قد انقسموا إلى صنفين وهما أهل الخير وأهل الشر بعد نزول القرآن الذي قد بدأ نزوله بالآيات الخمس في ليلة القدر.

٢– تعيين التمهيد في السورة

والخطوة الثانية في نظم القرآن هي تحديد التمهيد في السورة يريد المفسر تفسيرها. يبدو هذا الأمر عجيبا وغريبا. وهذا الأمر متفق عليه أنّ الكلام له نوعان من حيث الضخامة وهما الطويل والقصير، فأما الكلام الطويل الذي يحتوي على عدة المحاور والمطالب فيجب على المتكلم تكوين الكلام مؤثرا وجاذبا بالبلاغة والفصاحة. والكلام المؤثر لبلاغته وفصاحته يحتاج إلى التمهيد الذي يجذب القلوب إلى الكلام، فإلا يكون الكلام غير الفصيح والبليغ. فأما الكلام القصير هو لا يضطر إلى القول التمهيدي لأنّ فيه التركيز على أمر واحد، وهو مثل الإعلان العام لمحور وحيد الذي يريد المعلن به الإنتباه للمخاطبين إليه.

وهذا أمر معروف أنّ التمهيد في الكلام يرد دائما في بداية الكلام. فالتمهيد في السورة في بدايتها، فالأمر المشكل في ذلك هو تعيين الآيات للتمهيد. يمكن أن يواجه المفسر مشكلة بالنسبة لكمية الآيات الإبتدائية للتمهيد. وهذا ليس صعبا عسيرا. يجب على المفسر أن يختار المحور الأول في السورة تمهيدا فيها. أحيانا آية واحدة تكون مشتملا على المحور الأول، وأحيانا آيتان أو أكثر تظهر ذلك. تحديد التمهيد في السورة له أهمية كبيرة. يجد المفسر في التمهيد تسهيل تدبر الآيات في السورة وتفسيره. لأنّ

التمهيد يوضح السبيل الذي يريد المفسر أن يسير فيه. تحديد التمهيد في السورة مثل عبور الجسر قبل الشارع العام. فمن عبر الجسر بسلامة وصل إلى الطريق المطلوب.

فمثلا التمهيد في سورة البقرة يتكون من الآيات الخمس في بدايتها ﴿**الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ**﴾، وهذه الآيات تتحدث عن أمر واحد وهو: إنّ المتقين المتصفين بالإيمان والأعمال الصالحة هم الذين يستطيعون أن يستفيدوا من الكلام المنزل في سورة البقرة. بهذا التمهيد في سورة البقرة يعرف قارئ القرآن بأنّ بقية الآيات في السورة توضح الأمرين: الأوامر والنواهي، لكي يمتثل بالأولى ويتقي من الثانية.

٣- تقسيم المحاور في السورة إلى أنواع محددة بدقة

الخطوة الثالثة في نظم القرآن هي تنويع المحاور وتحديد الموضوعات في السورة. يجد القارئ للقرآن الحكيم في سور القرآن وخاصة في ثلاثة أنواع من السور وهي: الطوال، والمئين، والمثاني؛ وأيضا في بعض السور من المفصل، موضوعات شتى، وقضايا عديدة، ومحاور مختلفة. وهذا الأمر معروف ومعلوم أنّ القرآن يعالج أربع أمور بإهتمام بالغ وهي: الإيمان ومراسم التنسك والأخلاق الفردية والأخلاق الإجتماعية. ويحرص القرآن على الناس أن ينتبهوا بأوامره ونواهيه داعيا لهم بإستخدام مناهج مختلفة بما فيها البشارة والنذارة والتحريص والزجر والحكاية والنصيحة والأمثال والأقسام. فتوجد هذه الأمور منتشرة في جميع السور من الطوال والمئين والمثاني. ولا تخلو سورة عن ذكر هذه المحاور معا. فيجب على المفسر أنّه يقرأ ويستقرأ ويحدد بدقة جميع الموضوعات المذكورة في السورة.

وهذا أمر واضح أن السورة لا تنوه الموضوعات المختلفة فيها بترتيب علمي وموضوعي كما هو معروف ومتداول بين المؤلفين والباحثين والشارحين وأهل العلم؛ بل بالترتيب الذي هو أنسب لإفهام الناس وتلقينهم لأنّ القرآن ليس كتابا عن موضوع محدد مخصوص من الموضوعات، بل هو كلام لهداية الناس إلى ما هو الحق والباطل، وما هو الصحيح والخطأ، وما هو البر والإثم، وما هو الصراط المستقيم والضلالة، وما هو المفيد والمضر، وما هو الثابت والمشكوك، وما هو الحلال والحرام، وما يؤدي بالناس إلى الفلاح وما يذيقهم الخسران، وما ينتج على دخولهم الجنة أو النار. ولأجل ذلك تتكرر الموضوعات هذه من حين إلى آخر في السورة. إنّ القرآن يشير في مكان إلى شيء وينتقل دفعة إلى موضوع آخر ويذكر مرة أخرى ما أشار إليه قبل ذلك. ويختلف الأسلوب لذكر هذه المحاور المختلفة في السورة. أحيانا يذكر محور في آية واحدة وأحيانا في آيتين أو أكثر.

مثلا في سورة البقرة توجد عدد من موضوعات بما فيها المتكررة بل حوالى أكثر من مائة موضوع منها النصيحة للمؤمنين المتقين، والفضيحة للمنافقين المبتذلين، والزجر للكافرين المشركين، والذم لليهود المفسدين. والمفسر الذي يريد أن يفسر سورة البقرة وإيتاء رسالتها مع إصالتها ينبغي عليه أن يحصي ويستحصي ويحدد الموضوعات فيها. وهذة ليست مشكلة حتى عند المبتدئ لقراءة القرآن.

٤– إستقصاء للترابط بين هذه المحاور في السورة

الخطوة الرابعة في سبيل استخدام نظم القرآن لفهم القرآن فهما صحيحا ولتفهيم معانيه بأصالة بالغة هي التدبر للترابط بين المحاور المحددة في السورة. يظن قارئ القرآن في أكثر الأحيان أنّ الآيات في السورة غير المربوطة لسببين: أولهما، أن الآيات في السورة تحتوي موضوعات شتى بدون ترابط بينها، وثانيهما، أنّ القرآن نزل منجما بدون انسجام بين الكلام المنزل في مدة أكثر من عشرين سنة. وهذان هما السببان اللذان يؤديان

بالكثير من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين إلى أنّ الآيات في السورة تخلو من الترابط بينها.

هذا من سوء الظن على الله أنّ في كلامه الحكيم لا يوجد الربط والعلاقة بين أجزائه. ويؤكد المفسرون المؤيدون لنظم القرآن بكل توكيد أنّ الآيات في السورة منسجمة في معناها. فيمكن أن يشبه مجموعة الآيات في السورة بالإكليل الذي يتألف بأزهاره العديدة المتباينة بألوان مختلفة. والمفسرون الذين حاولوا إبراز الربط بين الآية وما قبلها وما بعدها سمّوا ذلك فنّ المناسبة بين الآيات. ولكن الاستقصاء للترابط بين المحاور المتنوعة في السورة مختلف تماما من المحاولة لإيتاء المناسبة بين الآيات. والأسلوب فيهما أيضا متباين مختلف. والأسلوب في المناسبة بين الآيات كما يستخدمه المفسرون هو المقال "لما قال الله تعالى كذا وكذا في الآية قبل هذه الآية فقال الله كذا وكذا في هذه الآية"[١٣]. لايظهر هذا المقال المناسبة بين الآيات لأنه لا يشير إلى وجه من وجوه المناسبة. فأما الترابط بين المحاور يقول المفسر فيه عن وجه أو وجوه للربط بين الموضوعات العديدة في السورة.

ويتضح الأمر بمثال. بعد النصائح للمؤمنين والمنافقين والكافرين، وبعد ذكر قدرة الله الكاملة في خلق السماوات والأرض في الآيات ١-٢٩ في سورة البقرة؛ يقص القرآن أحسن القصص وهي قصة خلق آدم من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٩؛ يقول إبن عاشور في مناسبة قصة خلق آدم وما قبلها من الآية التي تتحدث عن خلق الكون: "عطفت الواو قصة خلق أول البشر على قصة خلق السماوات والأرض انتقالا بهم في الاستدلال على أن الله واحد وعلى بطلان شركهم وتخلصا من ذكر خلق السماوات

[١٣] البقاعي، محمد بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م)، ص221-220.

والأرض إلى خلق النوع الذي هو سلطان الأرض والمتصرف في أحوالها".[١٤] فهذا القول يشبه القول: إنّه لما ذكر الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض في الآية ٢٩ جاء بذكر خلق الإنسان. هل هذا إبراز المناسبة بين الآيات؟ هذا فقط ذكر ما ذكره القرآن. فما قال المفسر عن وجه المناسبة شيئا. وقال الإصلاحي إن الربط بين قصة خلق آدم في سورة البقرة وبين الآيات قبلها هو أنّ الله سبحانه وتعالى جاء بقصة خلق آدم تنبيها للكافرين المنكرين للحق والمنافقين المعاندين له وتذكيرا للمتقين الصالحين. وفي قصة خلق آدم جاء ذكر موقفين أولهما للملائكة وثانيهما لإبليس؛ وكان موقف الملائكة امتثال أمرالله وخضوعهم له؛ وما إن أمرهم الله أن يسجدوا لآدم حتى فسجدوا له؛ وكان موقف إبليس إنكار لأمر الله واستكباره فلم يسجد لآدم وقال إنّه جوهر خلقه نار وعنصر خلق آدم هو تراب. فقيل من خلال هذين الموقفين إنّ الكفار والمنافقين قد أخذوا موقف إبليس بإنكارهم للحق وجحودهم لأوامرالله المنزلة؛ فأما المؤمنين المتقين فقد اختاروا موقف الملائكة بامتثالهم لأوامر الله وخضوعهم لها. فالآيات ٣٠-٣٩ في سورة البقرة تمثل المرآة لنوعين من الناس المنكرين والمؤمنين الذين جاء ذكرهم في الآيات ١-٢٩ في السورة لكي يدركوا طبيعة وقوفهم، هل هم مع الملائكة أم مع إبليس[١٥]. هذا هو السبب للترابط والمناسبة بين المحور الأول (الآيات ١-٢٩) والمحور الثاني (الآيات ٣٠-٣٨).

٥- التدبر فيما هو العمود في السورة

لايمكن لأحد أن يتصور كلاما بليغا فصيحا ثاقبا مؤثرا بدون العمود فيه. والعمود هو في الحقيقة الغرض الأساسي الذي يؤلف الكلام لأجله، والذي جميع المحاور

---

[١٤] ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير** (بيروت: مؤسسة التاريخ، ٢٠٠٠م)، ج١، ص٣٨١.

[١٥] الإصلاحي، أمين أحسن، **تدبر القرآن**، ج١، ص٧٧-٧٨.

فيه وأجزائه تدور حوله. يعتقد أصحاب نظم القرآن أن في جميع السور في القرآن يوجد العمود. وهذا العمود في السورة يعد بمنزلة نقطة الإرتباط لجميع الآيات في السورة[١٦].

كيف يقف أحد على العمود في السورة؟ هل هناك قاعدة كلية ومبدأ مستقل لإدراك ذلك؟ هذا هو التحدي الذي يواجه المفسر إزاء محاولته التفسيرية. والسبيل الوحيد لمعرفة العمود في السورة هو التدبر في الآيات في السورة. فالتدبر في جميع المحاور في السورة وموضوعاتها يهدي بلا شك إلى ما هو يوحّد الآيات كلها في السورة[١٧].

يقسم عبدالحميد الفرهي جميع السور في القرآن إلى سبعة أقسام تبتدئ كل منها بسورة مكية وتنتهي بسورة مدنية. ويقول الفراهي إن جميع السور في قسم واحد تحتوي على العمود المشترك بينها. بحسب رأي الفراهي القرآن كله يشتمل على سبعة عمودات (أعمدة)[١٨].

إذا تدبر المفسر جميع الآيات في سورة البقرة يشعر بأن العمود فيها هو انقلاب القيادة الدينية من أتباع موسى وعيسى عليهما السلام إلى أمة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم. وذلك لأن النبي هو القائد للناس. فقبل بعثة النبي الخاتم كانت القيادة في أيدي الأنبياء قبله؛ وبعد بعثته انتهت مشروعية قيادتهم. وسورة البقرة تدعو الناس إلى إقرار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. وعند الفراهي العمود في سورة البقرة هو إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم[١٩]. وليس هناك الفرق بين هذين العمودين المقترحين في سورة البقرة لأنّ القيادة الدينية وبعثة الرسالة شئ واحد.

---

[١٦] الفراهي، عبدالحميد، **رسائل**، ص٨٥.

[١٧] المرجع السابق.

[١٨] الإصلاحي، أمين أحسن، **تدبر القرآن**، ج١، المقدمة، ص٢٤-٢٦.

[١٩] الفراهي، عبد الحميد، **رسائل**، ص١٠٥.

٦- إستقراء الخلفية الإجتماعية التاريخية في السورة

القرآن كله قد نزل إلى الناس وللناس إجابة لإحتياجاتهم العديدة المختلفة في حياتهم. إنّ القرآن خاطب خمسة أنواع من الناس وهم عامة الناس والمنافقين والكافرين وأهل الكتاب وأهل الإيمان. فالآيات في القرآن تتحدث عن الناس بشكل عام أو تفضح الذين في قلوبهم مرض أو تنبه الذين عاندوا الحق أو تذم اليهود والنصارى لنكرانهم الخير أو تربي جماعة المسلمين في الإسلام. فعلى المفسر المؤيد لنظم القرآن أن يستقرأ الخلفية التاريخية الإجتماعية في السورة. ولإدراكها هناك مصدران مستعملان: أولهما السورة نفسها وثانيهما الروايات الصحيحة في شأن نزول السورة. وأكثر المفسرين لا يهتمون بإستقراء الخلفية التاريخية الإجتماعية مباشرة من السورة ويرجحون الرجوع إلى الروايات المعروفة في أسباب النزول.

يمكن أن يقول أحد أنّ هذه الخطوة السادسة في نظم القرآن والتى تتعلق بعلم أسباب النزول. وهذا ليس بصحيح. علم أسباب النزول كما هو موجود في المصادر ليس ذا أهمية بالغة لأنّ الروايات الصحيحة الثابتة في سبب نزول الآيات هي قليلة جدا لا تكثر من عشر ونيف رواية؛ والكثير من الروايات فيه للتفهيم فقط لا تتعلق مباشرة بنزول الآيات. فأصح الطريق في الأمر هو إستقراء السورة التي تبين بوضوح طبيعة الحالة التي نزلت السورة فيها.

وبإستقراء سورة البقرة مثلا يدرك المفسر طبيعة البيئة التي نزلت آياتها فيها وهي أنّ الجماعة الإسلامية تحت قيادة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم قد استقرت سفينتها على شاطئ البحر ولكن العرب قد يأسوا من التغيير في موقف الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه، والمنافقين ما زالوا في شدة النفاق للإسلام والمسلمين، واليهود استمروا في

عنادهم للقرآن، وأهل الإيمان كانوا في حاجةٍ شديدة للتربية الإسلامية. وهذه هي الظروف الخاصة التي نزلت سورة البقرة معالجة لها.[٢٠]

٧- تأويل الكلمات في السورة في ضوء لغة العرب الجاهلية و بحسب السياق

لغة القرآن ليست لغة المملكة السعودية أو الشام أو مصر؛ ولغة الجرائد اليومية في بلاد العرب ليست هي لغة القرآن. واللغة العربية التي تستعمل الآن في العالم في الإتصال والتأليف والتصنيف والتدريس والإذاعة لا تتساوي لغة الكتاب المنزل. ولكن المأساة الكبيرة الشديدة المستعصية في تفسير القرآن الحكيم هي أنّ المفسر يأخذ ويستخرج معنى المفردات القرآنية من علماء الأدب العربي المتأخرين والشعراء بمن فيهم أحمد بن الحسين المتنبّي (٣٥٤هـ) صاحب "ديوان المتنبّي" والقاسم بن علي المشهور بالحريري (٥١٦هـ) صاحب "المقامات الحريرية". فلماذا الأخذ والقبول من المتأخرين؟ هل القرآن بلغتهم؟ لغة القرآن بالإجماع لغة شعراء العرب الجاهليين. فيقتضي الأمر من المفسر أن يحاول فهم المفردات القرآنية وتفهيمها في ضوء لغة إمرؤ القيس وزهير ولبيد وغيرهم. وبمثال واحد يتضح أهمية الإستفادة اللغوية من شعراء العرب الجاهليين. ففي سورة الرحمن تكررت الجملة ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ واحد وثلاثين مرة. ومعنى كلمة "آلآء" كما جاء أكثر المفسرين به هو "نعم" (جمع النعمة). هل هذا المعنى يوافق الأدب العربي الجاهلي؟ قد نقل الطبري في تفسيره رأيين في معنى "آلآء" أولهما "نعم" و ثانيهما "القدرة"[٢١]. فأخذ المفسرون الرأي الأول وتركوا الثاني بدون حجة قاطعة. وفي الواقع "آلآء" ما استخدمها العرب الجاهليون بمعنى "نعم"، بل بمعنى "قدرة". ولو فسر

---

[٢٠] المودودي، سيد أبو الأعلى، **تفهيم القرآن**، ج١، ص٤٦-٤٨.

[٢١] الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م)، ج١١، ص٥٨١-٥٨٢.

المفسرون الآية ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ بتفسير "فبأيّ قدرة الله تكذبان أنتما" لكان أحسن وأفضل. وذلك لأنّ في سورة الرحمن جاء ذكر بعض الأمور التي ليس من النعم ولكن من القدرة. وفي الحقيقة وجود النعم يقتضي ويظهر قدرة القادر المطلق.

ويجب على المفسر أنه يفسر المفردات القرأنية حسب السياق الذي وردت فيه الكلمة أو الكلمات. فمثلا جاءت الكلمة "ذكر" في الآية ١٠ في سورة الأنبياء: ﴿**لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾؛ يؤوّل الكثير من المفسرين ﴿**ذكركم**﴾ بمعنى "صيتكم" و"شهرتكم" و"عزكم" و"شرفكم"[٢٢]. هل هذا معقول؟ يقول سيد أبو الأعلى المودودي: معنى ﴿ذكركم﴾ "بيان حياة الإنسان ومشاكله ومسائله وإحتياجاته وحقائقه وحل مشاكله"[٢٣]. ولأجل ذلك قيل للناس: ﴿**أفلا تعقلون**﴾. لو كان معنى كلمة ﴿ذكر﴾ "صيت" لما صح الطلب منهم للتعقل فيه لأنّ التعقل في ما هو موجود يعني بيان ما يتعلق بحياة الإنسان من حيث الفلاح والخسران. وتؤيد هذا الآيتان (٧٠-٧١) في سورة المؤمنون: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ**﴾ ففي هاتين الآيتين وردت كلمتان "الحق" و "ذكر" وهما مترادفتان في السياق. وقيل "جاء الحق" وأيضا "جاء ذكرهم" معنى ذلك "الحق يشتمل على ذكر حياة الإنسان من حيث الفلاح والخسران".

٨- إدراك المخاطب أو المخاطبين في السورة

كما قيل سابقا إنّ القرآن هو للناس لأنّه يعالج ما يواجهونه في حياتهم. إنّ القرآن يخاطب الإنسان أحيانا بجملة الخطاب مثلا ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾؛ ﴿**يا أيها**

---

[٢٢] الآلوسي، السيد محمود، **روح المعاني** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩م)، ج٩، ص٢١.

[٢٣] المودودي، **تفهيم القرآن**، ج٣، ص١٥٠.

الذين كفروا﴾؛ ﴿**يا أيها الذين هادوا**﴾؛ ﴿**يا أهل الكتاب**﴾؛ ﴿**يا أيها الناس**﴾؛ ﴿**يا أيها الرسول**﴾؛ و أحيانا بدونها. وكل سورة من سورالقرآن تخاطب هذا أو ذلك بكلمة الخطاب أو بغيرها. فيجب على المفسر أن يدرك ويصرح من هو المخاطب أو المخاطبين في السورة إذا لم يكن فيها كلمات الخطاب صراحة. ولا يمكن لأحد أن يفسر السورة بدون معرفة المخاطب أو المخاطبين فيها.

سيكون الأمر واضحا بمثال، فالخطاب في سورة البقرة لستة مخاطبين وهم: الرسول صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين، والكافرين، والمنافقين، واليهود، وعامة الناس. وفي الكثير من الآيات في سورة البقرة المخاطب غير واضح. مثلا في آيتها ١٠٦ ﴿**مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ**﴾. الكثير من المفسرين لا يعرفون من هم المخاطبون في هذه الآية؛ ويدّعون بدون دليل وبرهان أنّ الخطاب للمسلمين وذلك بسبب عدم استقصاء المخاطب أو المخاطبين فيها. وتعيين المخاطب يمكن على أساس السياق الذي وردت الآية أو الآيات فيه. إنّ الآية المذكورة أعلاه لها سياق خاص. ولا يخفى على المتخصص في القرآن أنّ الآيات ٤٠-١٥٠ في سورة البقرة تخاطب مباشرة أم غير مباشرة اليهود في المدينة؛ فأما الآية ١٠٦ هي تخاطب مباشرة اليهود الذين كانوا يعترضون على الكثير من التنزلات القرآنية التي قد خالفت ما جاء في التوراة، فقالوا إن التوراة من الله والقرآن أيضا من الله فكيف يمكن لله أن ينزّل في القرآن آية مخالفة للتوراة. فجاء الجواب الصارم في الآية ١٠٦ ﴿ **أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ**﴾ فنسخ الله ما أراد أن ينسخه في التوراة و جاء ببديل خير منها أو مثلها في القرآن. وبتعيين صحيح للمخاطب في الآية يستطيع المفسر أن يصل إلى الحكمة في الآية.

٩- تمييز ظاهرة "الحذف والإيجاز" في السورة مع تبيين الكلام بإستعمال ما هو المحذوف فيها

الإيجاز في الكلام هو من خصائص الإتصال الإنساني. وكانت العرب في عهد نزول القرآن تفتخر ببلاغتها التي أسست على أساليب كثيرة بما فيها "الإيجاز". والقرآن مملوء بهذا الوصف. والإيجاز له أنواع كما زعم علماء علوم القرآن، فأحدها "الإيجاز بسبب الحذف". فيجد القارئ أنّ الحذف قد وقع في الكثير من الآيات في سور القرآن. فلا يمكن للمفسر أن يفسر السورة بدون استقصاء ما هو الحذف فيها. إذا كان المفسر لا يعرف ما هو المحذوف في الآية يأتي بتأويلات بعيدة المعنى. فأما الإيجاز بسبب الحذف فله عدة أنواع منها حذف الكلمة أو الكلمتين، ومنها حذف العبارة الكاملة، ومنها حذف الفقرة، ومنها حذف الخلفية الإجتماعية. فعلى المفسر أنّه يدرك نوعا من الأنواع للحذف في السورة لأنّ هذا الإدراك يمهد له مهمته التفسيرية.

على سبيل المثال العملي نختار الآية ٦٢ في سورة البقرة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَٰخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. فإقترح المفسرون عدة تفاسير لها. عند البعض هذه الآية قد نسختها الآية ١٩ في سورة آل عمران ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰم ﴾. وأيضا الآية ٨٥ في سورة آل عمران ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَٰخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.[٢٤] وأوّل الآخرون من المفسرين أنّ الآية تتحدث عن الأتباع المبتكرين للأنبياء[٢٥]. وفسرها بعض المفسرين بأنّ المصطلحات المختلفة لأتباع الأنبياء ليس لها أهمية جوهرية ولكن أهم الشروط للفلاح لهم في الآخرة ثلاث أشياء

---

[٢٤] ابن عطية، عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م)، ج١، ص١٥٦.

[٢٥] سيد قطب، **في ظلال القرآن** (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م)، ج١، ص٧٥-٧٦.

وهي: الإيمان بالله والإيمان بالآخرة والعمل الصالح[٢٦]. وزعم بعض المجددين أنّ هذه الآية تصرح أنّ النجاة في الآخرة ليست محددة لمتبعي الإسلام فحسب، ولكن فتح الباب للنجاة للآخرين منهم النصارى واليهود والصابئون الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون الصالحات، فليس واجبا عليهم أن يؤمنوا بالنبي الخاتم وبالقرآن[٢٧]. فأيّ التأويل من هذه المحاولات المختلفة للآية المذكورة صائب وأقرب من الحق؟ ولا أحد منها أقرب إلى الصواب.

الخطأ الأساسي في هذه الآراء هو تجاهل المفسرين لظاهرة الإيجاز والحذف. قد وقع في الآية حذف للكلمات المتعلقة بالأبعاد الأخرى للإيمان وهي: ورسله وكتبه. فالشرط للنجاة الأخروية ليست ثلاث فحسب، ولكن خمس وهي: الإيمان بالله، والإيمان بالرسل، والإيمان بالكتب المنزلة، والإيمان بالآخرة، والعمل الصالح. فيأتي سؤال: على أيّ أساس عرفت الكلمات المحذوفة في الآية؟ فالجواب هو أنّ معرفة الحذف من داخل الآية ومن خارج الآية في القرآن كله. فأما معرفة الحذف من الآية بنفسها هي من العبارة ﴿**وعمل صالحا**﴾. فمن الذي يخبر بما هو العمل الصالح؟ إذا ترك ذلك على الإنسان لتعيينه ﴿**فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٣]. فهذا أمر بديهي أنّ الله هو الذي يخبر الناس بالصالحات عن طريق أنبيائه الذين أنزل عليهم الكتاب الذي يبين ما هو العمل الصالح. وأما معرفة هذا الحذف من القرآن بنفسه وهو في الكثير من الآيات منها في (سورة آل عمران: ١٩ و٨٥). وهذا لايمكن لأيّ جزء القرآن أنّ يخالف الجزء الآخر. وأعلن القرآن بكل الصراحة إنّه منزه تماما من

---

[٢٦] ابن عطية، عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م)، ج١، ص١٥٦.

[٢٧] الدكتور فضل الرحمان، **Major Themes in the Qur'an** (كوالا لمبور: إسلامك بك ترست، ١٩٩٩م)، ص١٦٦.

الإختلاف بين آياتها: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ٨٢].

١٠- تحديد الخاتمة في السورة

الخطوة العاشرة الأخيرة في نظم القرآن هي: تحديد الخاتمة في السورة وهذا يسير جدا بشرط التدبر في السورة لإدراكها. إذا كان في السورة التمهيد فلا بدّ من أن تكون فيها الخاتمة لأنهما جزءان متلازمان يقتضي بعضهما بعضا. وهذا أمر بديهي أن تكون الخاتمة في نهاية السورة. فعلى المفسر أنّ يعيّن كمية الآيات التي تؤلف الخاتمة. فالأمر اللازم لتحديد الخاتمة في السورة هو أن يتكون من المحور الواحد وليس من الأكثر.

الخاتمة في سورة البقرة هي تتكون من الآيتين الأخيرتين (٢٨٥-٢٨٦) اللتين تعلمان المتقين الصالحين الذين قد اختارهم الله لقيادة الناس بعد النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم الأمرين أولهما أبعاد الإيمان الكامل وثانيهما الدعاء إلى الله والتوكل عليه. فقيل في هذه الخاتمة إنّه لايفلح قوم ولا سيما الذين منصبهم القيادة إلاّ بالإيمان الكامل الشامل وهذا هو الإيمان الذي يظهر في العمل، وأيضا بالتوكل على الله وإظهار العجز أمامه لأن الذين لا يتوكلون على الله ولا يرفعون أيديهم إلى الله لحاجاتهم هم المستكبرون. والإستكبار هو نقيض القيادة. والتوكل على الله والإستكبار نقيضان لا يجتمعان.

التطبيق العملي لنظم القرآن في تفسير سورة الجمعة

سورة الجمعة هي السورة رقم اثنتين وستين في ترتيب القرآن ويشتمل على إحدى عشرة آية. والربط بين سورة الجمعة وسورة الصف التي قبل الجمعة وبين سورة المنافقين التي بعدها هو أنّ في الصف تحذير المسلمين من اليهود والنصارى الذين عاندوا أنبياءهم بشكل عام، وفي سورة الجمعة تحذيرهم من اليهود الذين خسروا أنفسهم بإستغراقهم في الدنيا، وفي سورة المنافقين تحذير المسلمين المخلصين من المنافقين الذين

كانوا أشد عداوة لهم. فهذه السور الثلاث تربي المؤمنين لكي يكون لديهم موقفا حاسما إزاء اليهود والنصارى والمنافقين.

يتألف التمهيد في السورة بالآية الأولى التي تؤكد على أربعة صفات لله تعالى وهي: الملك القدوس العزيز الحكيم. وهذه الصفات تتعلق ببعثة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم التي قد جاء ذكرها في الآية الثانية. فقيل في التمهيد :أنّ اليهود قد كانوا يشكّون ويعترضون أن في بعثة النبي كان خطأ لأنه فلا بد من قوم اليهود ولا من غيرهم؛ فقيل لهم إنّ الله هو الملك المختار لإختيار الشخصية للنبوة؛ وإنّ الله ما نسي وما أخطأ في بعثة النبي من قوم غير اليهود لأنه هو القدوس المنزه عن الخطأ؛ وإن الله هو العزيز القهار الجبار القادر على كل شيء؛ وإن الله هو الحكيم العليم الذي يقتضي علمه وحكمته أن النبي الخاتم يكون من العرب الذين كانوا أفضل من اليهود وأيضا من الأقوام الآخرين من حيث الإخلاص و الشجاعة والشهامة والصبر.

في سورة الجمعة ستة محاور. المحور الأول يتكون من الآية الأولى التي قد قرأناها من حيث التمهيد. والمحور الثاني يتكون من: الثلاث آيات (٢-٤) التي تتحدث عن فضل الله على العرب ببعثة النبي الخاتم منهم الذي كانت مسؤليته تلاوة الآيات المنزلة وتزكية متبعيه وتعليمهم الكتاب والحكمة. والمحور الثالث يتكون من: الآية الخامسة التي تذم حاملي التوراة لعدم إخلاصهم للكتاب. والمحور الرابع هو يشتمل على: ثلاث آيات (٦-٨) التي توبخ اليهود لأخطأهم الشنيعة وهي تشبثهم بالدنيا والمنفعة بها، ومخالفتهم الأحكام الدينية، ومخافتهم الموت. والمحور الخامس يتكون من الآيات (٩-١٠) اللتان تنصحان المؤمنين أن يهتموا بصلاة الجمعة إهتماماً بالغاً في وقتها ويشتغلوا في كسب الرزق بعد الصلاة ويذكروا الله كثيرا في الصلاة وأيضا في أمور الدنيا. والمحور السادس هو في الآية الأخيرة (١١) التي تحذر المؤمنين الذين كانوا يستمعون إلى خطبة الرسول صلى

الله عليه وسلم قبل صلاة الجمعة وفروا فرارا من المسجد عند ما سمعوا نداء مجيء قافلة التجارة.

الآن يأتي دور المفسر في تدبر الترابط بين هذه المحاور الستة في السورة. فأما الربط بين المحور الأول وبين الثاني قد قيل عنه في تحديد التمهيد المذكور أعلاه، وهو أنّ الصفات الأربعة لله تعالى ﴿الملك القدوس العزيز الحكيم﴾ قد ذكرت في مناسبة بعثة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم من الأميين وليس من اليهود. والربط بين الثاني والثالث هو أنّ الآية الخامسة التي تتكون المحور الثالث توضح السبب الأساسي لعدم استحقاق اليهود لفضل الله أنّهم ما قدروا التوراة حق قدرها، فكيف يمكن لهم أن يكونوا مخلصين للقرآن المنزل على النبي الخاتم. والربط بين المحور الثالث وبين الرابع هو أنّ اليهود إضافة إلى عدم إخلاصهم للتوراة كانوا جبناء نذلاء الذين كانوا يرتكبون الجرائم الشنيعة الأخرى. فهذه المحاور الأربعة الأولى مرتبطة منسجمة لأنها تتحدث عن بعثة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم من العرب، وموقف اليهود لذلك وأسباب عدم استحقاقهم لبعثة النبي منهم. فلا يتصور الكثير من المفسرين للربط بين هذه المحاور الأربعة والمحورين القادمين (٩-١٠) اللذين يتكلمان عن كما هو الظاهر من العبارة أهمية صلاة الجمعة وقيامها على وقتها. ولأجل ذلك قال المفسرون: إنّ اليهود كانوا يفتخرون بيومهم السبت المقدس إستهزاء من المؤمنين أنهم ليس لديهم يوما مقدسا مختصا للعبادة الخاصة فجاءت الآيات ٩-١١ إخبارا للمؤمنين بأنّ الله قد اختص يوم الجمعة المقدس لهم[٢٨]. هل هذا يتكون الربط بين المحاور المتعلقة باليهود وبين المحورين المرتبطين بأهمية الجمعة؟ وأيضا هذا القول مستنبط من الرواية الواردة في تفاسير المتقدمين وخاصة في "الكشاف للزمخشري" مردودة وليس لها أصل. فما الربط بينها؟ بعد الذم لليهود في الآيات السابقة (٥-٨) توجهت السورة إلى المؤمنين توبيخا لهم أنّهم قد فعلوا ما فعلوه اليهود الذين كانوا لا

[٢٨] الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف** (بيروت: دارالكتب العلمية، ١٩٩٥م)، ج٤، ص٥٢٠.

يهتمون بالمناسك الدينية على وقتها ويتشبثون بالأمور الدنيوية حتى في المواعيد للعبادة. ونصحت السورة في الآيتين (٩-١٠) المؤمنين أنّ الموقف المطلوب منهم هو أنّ كل شيء على وقته، المناسك العبودية بما فيها الصلاة ولا سيما صلاة الجمعة على وقتها وكذلك الأمور الدنيوية على وقتها. فأما المحور الأخير (١١) هو يرتبط بالآيات (٩-١٠) ارتباطاً قوياً لأنه استشهد على المؤمنين التصاقهم بالدنيا وذلك بفرارهم من المسجد عند الخطبة لما سمعوا صوت قدوم القافلة.

والعمود الأساسي في السورة والذي تدور جميع آياتها حوله هو: كما قال الفراهي: (تحذير المؤمنين من اليهود الذين نسوا من هم وما هي الصلة بينهم وبين الكتاب المنزل؟). ولأجل ذلك جاء ذكر اليهود مع ذكر بعض الجرائم قبل تنبيه المؤمنين على ترجيحهم الهوى على حب الدين.

فأما الخلفية التاريخية فهي تتعلق أولا باليهود وثانيا بالمؤمنين. كان اليهود يعترضون على بعثة النبي الخاتم من القوم غير اليهود لأنهم كانوا يعتقدون بأنّ النبي الخاتم سيبعث منهم، ولكن عند ما اختار الله سبحانه وتعالى النبي الخاتم من العرب سخط اليهود وظنوا أن في بعثة النبي الخاتم قد حصل الخطأ. فأما ما يتعلق بالمؤمنين هو أنّهم تركوا النبي على المنبر وهو يخطب وهرولوا إلى الأسواق التي قد رحّبت بالقافلة التجارية من خارج البلد فجاء التنبيه في السورة.

فأما تعيين المعنى للكلمات في ضوء لغة الجاهلية وحسب سياق ماكان في السورة مشكلة إلا كلمة واحدة وهي "الأميين". هل هذه الكلمة قد أوجدها العرب بأنفسهم؟ هذا لا يمكن إدراكه بالعقل لأنّها كلمة ذمّ وتخالف دعوى العرب أنهم كانوا فصحاء. والفصاحة والأميّة نقيضتان لا تجتمعان. وفي الواقع جاء اليهود بهذه المصطلح للعرب لأنهم كانوا يعتبرونهم قوما لا يعرفون الوحي والكتاب والأنبياء. وحتى الآن يقسم اليهود جميع الناس إلى نوعين، اليهود وغير اليهود وهم الأميون بالعربية. فأراد الله سبحانه

وتعالى بهذه الكلمة أن يخبر اليهود أنّ الذين كانوا في عيونهم قوما ضالين قد شرفهم الله سبحانه وتعالى ببعثة النبي الخاتم منهم.

المخاطبون في هذه السورة هم اليهود والمؤمنين. فقيل لليهود إنّهم لا يستحقون الفضل العظيم من الله في بعثة النبي الخاتم منهم لأنهم قد ضلوا وأضلوا ولم يكونو من المخلصين. وقيل للمؤمنين أن يحترزوا من موقف اليهود لأحكام الله وأن يكونوا مخلصين للنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم.

وفي سورة الجمعة عدة أنواع من الحذف منها الخلفية التاريخية كما جاء ذكرها من قبل ومنها بعض الكلمات مثلا قبل الآية الخامسة ﴿**مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَاةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ المحذوف هو كلمة "لأنّ". الكلمات كهذه قد تحذف من العبارة لأنّ المخاطب أو المخاطبين يعرفون ذلك. والغرض في الحذف هو إيقاع البلاغة في الكلام.

فأما الخاتمة في سورة الجمعة وهي تتكون من العبارة الأخيرة في الآية الأخيرة: "**والله خير الرازقين**". قد جاءت في التمهيد ذكر الصفات الأربع لله وفي الخاتمة ذكرت صفة أخرى له وهي "خير الرازقين". وبهذه الخاتمة أخبر الله سبحانه وتعالى القومين اليهود والمؤمنين أنّ الرزق بيد الله وليس بأيدي الناس فعليهم أن يبذلوا جهودهم حق الجهود في الدين والدنيا و يتوكلوا على الله.

الكلمة الأخيرة في المقال

ويبدو أنّ التفاسير الثلاثة جامع البيان للطبري والكشاف للزمخشري ومفاتيح الغيب للرازي لها أثر كبير على مناهج في الكتب التفسيرية بعدها. فالأول يمثل جمع الآراء المتعلقة بمفردات القرآن، والثاني يركز على البلاغة في القرآن لتأييد مذهب خاص من المذاهب الكلامية، والثالث قد خصصه المفسر للمناقشة الفلسفية الممتدة إلى

المساحة والأفق التي ليست لها علاقة بفن التفسير. ويعرف أنّ هذه المناهج الثلاثة لا تؤدّي إلى توحيد الأمة بل إلى التفريق بينهم. فتحتاج الأمة الإسلامية إلى منهج تفسيري يستهدف فهم الحكمة في الكلام المنزل وعلى وحدة الأمة على أساسها وهو نظم القرآن الذي يتألف من عشرة مبادئ بدقة. فأما الترتيب في هذه المبادئ ليس هو أمر مستقل لبعض منها. فيبدأ المفسر بإدراك الترابط بين السورة وما قبلها وما بعدها، ثم ينتقل إلى تحديد التمهيد وتنويع المحاور مع معرفة الربط بينها. ولكن المبادئ الأخرى قبل تحديد الخاتمة يمكن الترتيب بينها بحسب الضرورة. وتحتاج الكليات والجامعات في البلاد الإسلامية إلى إدخال مادة جديدة من المواد الأخرى في ميدان التفسير. إنّ الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا أدخلت مادة مستقلة باسم "نظم القرآن" في المواد القرآنية وتدرس هذه المادة منذ حوالي عشر سنوات. فيدعو الباحث من صميم قلبه الله سبحانه وتعالى الذي أنزل القرآن الحكيم على نبيه الخاتم صلى الله عليه وسلم هدى للناس ودستورا للمتقين أن يجعل هذا البحث مفيدا للأساتذة والطلاب والمؤمنين المسلمين عامة.

المصادر والمراجع

ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**. بيروت: مؤسسة التاريخ، ٢٠٠٠م.

ابن عطية، عبد الحق بن غالب. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

الإصلاحي، أمين أحسن. **تدبر القرآن**. دهلي: الشريكة التاج، ١٩٩٧م.

الآلوسي، السيد محمود. **روح المعاني**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩م.

الباقلاني، محمد بن الطيب. **إعجاز القرآن**. تحقيق: السيد أحمد صقر. مصر: دار المعارف، ١٩٩٧م.

البقاعي، محمد بن عمر. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

الجاحظ، عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**. بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٤٢٣هـ.

الجاحظ، عمرو بن بحر. **الحيوان**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز في علم المعاني. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

الخطابي، حمد بن محمد. **بيان إعجاز القرآن**. مصر: دار المعرفة،ط٤، ٢٠٠٢م.

الذهبي، محمد حسين. **التفسير والمفسرون**. د.م: د.ن، د.ط، د.ت.

الرازي، فخر الدين. **مفاتيح الغيب**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧م.

الزمخشري، محمود بن عمر. **الكشاف**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.

سيد قطب. **في ظلال القرآن**. القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م.

الطبري، محمد بن جرير. **جامع البيان**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

الفراهي، عبد الحميد. **رسائل الإمام الفراهي**. الهند: الدائرة الحميدية، سراى مير، اعظم كره، ١٩٩١م.

فضل الرحمان. **Major Themes in the Qur'an**. كوالا لمبور: إسلامك بك ترست، ١٩٩٩م.

المودودي، سيد أبو الأعلى. **تفهيم القرآن**. لاهور: إدارة ترجمان القرآن، ١٩٩٧م.